

المحاضرة الثالثة

المقاربة الأنثروبولوجية للثقافة

من أشهر التعريفات الأنثروبولوجية للثقافة وأكثرها ذيوغا لقيمتها التاريخية تعريف الانجليزي ادوارد تايلور ، وبالفعل سيطر تعريفه علي عقول علماء الأنثروبولوجيا لعقود عديدة ، وقد تبني عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان كروبر وكلوكهون التعريف الذي يقول بأن الثقافة تجريد " ووافقهم علي هذا التعريف بيلز وهويجر اللذان أضافا بأن " الثقافة هي تجريد مأخوذ من السلوك الإنساني الملاحظ حسيا "

أولا – تعريفات متعددة لظاهرة واحدة

يمكن القول بأن تعريفات الثقافة كانت تتطور تبعا لتطور الاتجاهات والمناهج والمقاربات المختلفة . ومع ذلك يمكن رصد اتجاهين تدرج في إطارهما مختلف التعريفات الأول اتجاه واقعي يري أن الثقافة كل يتكون من أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو جماعة معينة من البشر والثاني اتجاه تجريدي يري الثقافة مجموعة أفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذي يشتمل علي أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو جماعة معينة .

قام هوابت بتجميع وتصنيف الأنساق الثقافية في ثلاثة قطاعات كبرى تتكون منها الثقافة ومن خلال هذا التقسيم يتم تحديد مواقع العناصر الثقافية ، وهذه القطاعات هي :

- ١ - الأفكار والعقائد والاتجاهات الموجودة في عقول الأفراد .
- ٢ - الأشياء المادية والمحسوسة التي يعطيها الإنسان معني محددا .
- ٣ - العلاقات وخطوط التفاعل والاتصال بين البشر بعضهم ببعض وبين البشر والأشياء

إلا أن هناك تصنيف آخر يعتمد محاور الاهتمام أساسا له ويمكن تلخيصه في أربعة اتجاهات :

الأول : يقدم مقاربه من زاوية التاريخ الثقافي ، وهو اتجاه رسمه بواز ، أهتم بخصوصية كل ثقافة وحاول إيجاد صلات تاريخية جغرافية بين الثقافات .

الثاني : يقوم بمقاربة الثقافة من خلال علاقتها بالشخصية، وهو اتجاه رسمه سابير ويتصل بهذا الاتجاه علي وجه العموم " الثقافية " كأعمال روث بنديكت ومارجريت ميد.

الثالث : يعمد الي مقارنة الثقافة بالرجوع الي نظريات الاتصال الحديثة منطلقا أساسا من النموذج اللساني ويوجد أحسن تعبير عنه في أعمال كلود ليفي شتراوس .

الرابع : استند الي التحليل الوظيفي في مقارنة الثقافة والذي برز علي يدي رائده مالينوفسكي ، وهذا التحليل يسمح بتحديد العلاقة بين العمل الثقافي والحاجة عند الإنسان سواء كانت هذه الحاجة أولية أو فرعية .

في الخلاصة يمكن القول إن مختلف التعاريف الأنثروبولوجية حافظت علي المقابلة بين الطبيعي والثقافي تدعمها المقارنات التي كانت رائجة بين الحيواني والإنساني وبين ما هو بيولوجي أو فطري وبين ما هو مكتسب في الوجود الإنساني

ثانيا - محاولات واتجاهات ومدارس

كان ولا يزال الوصول الي الأسباب التي يقوم علي أساسها التباين بين الثقافات القضية الفكرية الأساسية التي استقطبت الاهتمام والكثير من الجدل والنقاش وقد تبلورت في اتجاهات ونظريات عديدة وقد ظهرت خلال القرن الماضي وتحديدا في نصفه الأول ثلاثة اتجاهات رئيسية تفاعلت مع بعضها وهي :

الاتجاه الأول – الاتجاه التاريخي التخصصي : نشأ في إطار الدراسة النظرية للتاريخ الحضاري للإنسانية . وهو عبر عن استمرار الاهتمام باستخدام التاريخ لتفسير ظاهرة التباين الثقافي للمجتمعات الإنسانية ، وتأثر هذا الاتجاه بالمدرسة الجغرافية الألمانية ورائدها فردريك راتزل.

الاتجاه الثاني – البنائي الوظيفي : فقد نشأ في الوقت الذي ظهرت فيه نظرية الانتشار الثقافي في أوروبا وأمريكا كرد فعل عنيف إزاء النزعة التطورية . واتصف هذا الاتجاه بأنه لا تطوري ولا تاريخي إذ ركز علي دراسة الثقافات كلا علي حدي في واقعها وزمنها الحالي . فالوظيفية إذن دراسة آنية ترفض المنهج التاريخي . ولقد تبلور هذا الاتجاه عن

طريق الأفكار والكتابات التي طرحها كل من العالمين البريطانيين **مالينوفسكي** و**راد كليف براون** وهو اتجاه استفاد من المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية .

أما **الاتجاه الثالث** وهو **الاتجاه التاريخي النفسي** : فهو متأثر بما كان يجري في ميدان علم النفس وبخاصة علي أيدي **فرويد** وتلاميذه حيث رأي هؤلاء إمكانية فهم الثقافة عن طريق التاريخ الي جانب الاستعانة ببعض مفاهيم علم النفس وطرق تحليله .

ثالثا : الأنثروبولوجيا الجديدة

ظهر اتجاهين رئيسيين هما التطورية الجديدة وظاهرة الثقاف. ومن رواد هذا الاتجاه الثقافي ميلفن هرسكوفيتز و رالف لينتون وروبرت ردفيلد ومارجريت ميد . ولقد نشأ ما يعرف بالأنثروبولوجيا التطبيقية خلال العقود التالية للحرب العالمية الثانية . في المقابل نشأ الاتجاه المعرفي في دراسة الثقافة والذي يبحث فيما يتصوره الناس في طريقة تفكيرهم وأسلوب إدراكهم للأشياء والمبادئ التي تكمن وراء هذا التفكير والتصور . وقد تبلور هذا الاتجاه الأخير مع بداية الستينات في مدرستين رئيسيتين إحداهما ظهرت في فرنسا وعرفت بالبنائية والأخرى في أمريكا وعرفت باسم الأنثوغرافيا الجديدة .

وخلاصة القول فان اثنولوجيا النصف الثاني من القرن العشرين شابهها الكثير من التضارب واقتضت الي الاستقرار الأكاديمي الذي عرقل توصلها الي نظريات علمية علي الرغم من النقاش الموسع حول النواحي المنهجية مما دفع البعض الي التساؤل عن مدي أهمية هذا النزاع المنهجي الذي يدور حول الكيفية التي تدرس بها الثقافات الإنسانية وصلة ذلك بقضايا الإنسان المعاصر . بقي أن نشير الي ان الدراسات التي يقوم بها الأنثروبولوجيين قد تنطلق من هذا الاتجاه أو ذاك لكنها في غالبيتها تحاول الجمع والاستفادة منها كلها

المحاضرة الرابعة

المقاربة السوسيولوجية للثقافة

لا تنفصل هذه المقاربة عما تعرضنا له في السياق الأنثروبولوجي للثقافة ، وان كانت تعبر عن خصوصية أخذة في التبلور والوضوح علي الصعيد النظري والتطبيقي .

إن الثقافة كمفهوم سوسيولوجي تشمل كل ما في البعد الأدبي والتراثي والمسرحي والفني ، كما تشمل البعد الأنثروبولوجي الذي يطال الأدب والفن كما يطال حقل التعابير التي نطلق عليها عادة صفة اجتماعية والتي تميز جماعة بشرية معينة ، كالتقاليد والعادات والاحتفالات علي أنواعها ومسالك التعبير وتقاليده الطبخ وأشكال اللباس فضلا عن التصورات والأساطير والمعتقدات .

وقد قام العديد من السوسيولوجيين قبل ذلك بتفنيث الكليات الكبرى للثقافة الي وحدات أطلق عليها السمات الثقافية ، فأسلوب تبادل التحية بين الأفراد وسلوكيات الفرح أو الحزن بأبعادها وسماتها المادية واللامادية علي سبيل المثال هي الطريقة التي يمكن من خلالها تحليل الثقافة السائدة في مجتمع ما .

أولا – التأصيل بين النمط والنظام

يوجد داخل الأنماط الثقافية بعض التشابهات وهذا ما يطلق عليه الأنماط العامة للثقافة . وكان بعض السوسيولوجيين ومن أبرزهم **رالف لنتون** يري أن حاجات الفرد هي دوافع السلوك الأساسية ، ولذلك فهي الدوافع المسؤولة عن تفاعل المجتمع والثقافة . وهو يوسع مفهوم الحاجات ليشمل الحاجات النفسية فضلا عن البيولوجية . ومع ذلك يحدد **النتون** بثلاثة عناصر أساسية صالحة لتفسير السلوك البشري وهي :

١ - الحاجة الي الاستجابة العاطفية .

٢ - الحاجة الي الخبرة الجديدة .

٣ - الحاجة الي الأمن .

ومع ذلك فان أشكال السلوك المختلفة لا يمكن تفسيرها علي أساس الحاجات الدافعة وحدها ، فهذه الحاجات مجرد قوي ومحركات ودوافع . والسلوك المعبر عنها يتشكل بعدد لا نهاية له من العوامل الأخرى في المحيط الذي يحيا فيه الإنسان .

ويعمق **مالينوفسكي** هذا الاتجاه مؤكدا أن الحاجات الأساسية للفرد وإشباعها ترتبط ارتباطا وثيقا باشتقاق حاجات ثقافية جديدة ، وان هذه الحاجات الجديدة لا تتم إلا بإنشاء بيئة جديدة ، بيئة ثانوية أو اصطناعية . وهذه البيئة هي الثقافة بعينها لا أكثر ولا أقل .

هذه المقاربة الوظيفية تتضمن فكرة التنظيم ، ذلك أنه لا بد من تعاون بين الناس والمجموعات لإشباع الحاجات وهذا ينطبق علي كل الجماعات في كل الثقافات . ويسمى مالينوفسكي وحدة التنظيم الإنساني “ النظام الاجتماعي ” والذي يعني به الاتفاق علي مجموعة من القيم التقليدية تجمع الناس وتنظم حياتهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع بيئاتهم الطبيعية منها والصناعية .

وقد تنشأ النظم الاجتماعية تلقائيا أو عن قصد لتأمين الرغبات الأساسية والحاجات الأولية الضرورية فضلا عن أنها تمد الأفراد بالأسول والقواعد والمبادئ العامة التي يجب أن تقوم عليها معاملاتهم وهناك عدة تعريفات للنظم الاجتماعية ، ولكنها بشكل عام ليست إلا نماذج منظمة للسلوك توجه سلوك الأفراد ومواقفهم .

للنظم الاجتماعية أهمية كبرى ، فهي التي تعمل علي تشكيل سلوك الأفراد والجماعات وتضعه في قالب ونماذج تسهل الاتصال والتفاعل ، وبالتالي فهي تؤثر في أفكارهم ومعلوماتهم ومهاراتهم وخبراتهم ودوافعهم وقيمهم واتجاهاتهم لأنها تحملهم علي تكيف سلوكياتهم وفقا لمقتضياتها . وهي تنقل الي الفرد التراث الثقافي وتطبعه بالطابع المميز الخاص بالمجتمع الذي يعيش فيه .

يعتبر **اميل دوركايم** النظم الاجتماعية ذات خاصية إلزامية وإجبارية ، أي أنها تفرض نفسها علي الأفراد وتجبرهم علي طاعتها . ونظريته في هذا المجال تقوم علي أساس التمييز بين ما يسميه :

- **التصورات الفردية** : وأساسها المشاعر الناتجة عن تفاعل كثير من خلايا المخ ، وما ينتج عن هذا التفاعل من مركب ذي صفات خاصة به ، والمشاعر الناتجة تمتزج لتكون الصور وهي بدورها تمتزج لتكون التصورات الفردية .

- **التصورات الجمعية** : وهي تنتج عن طريق مزج الضمائر الفردية واتحادها في النهاية .

ويري دوركايم أن التصورات الجمعية هي أعظم شكل للحياة النفسية .

يكتسب الفرد الأنماط الثقافية المناسبة أثناء عملية التنشئة الاجتماعية بدءا باساليب السلوك المتنوعة وصولا الي الأنشطة الجماعية . ويمكن القول ان لكل مجتمع أو طبقة أو جماعة أنماط ثقافية تتشكل في أنساق متكاملة وتعمل كنماذج تفرض نفسها علي الأفراد بما يضمن حد أدنى من التماثل في السلوك .

قد يكون النموذج الثقافي عموما وشائعا في المجتمع كل ، كما قد يكون خاصا بقطاع معين من المجتمع ، وفي هذه الحالة يسمى ثقافة فرعية . فطرق تناول الطعام بدءا بالمجتمع الغربي المدني وانتهاء بالمجتمع البدوي أو الريفي تعبر عن أنماط ونماذج ثقافية ، كما أن طرق التعبير عن الفرح أو الحزن والاحتفالات وطقوس العبادات تعبر أيضا عن أنماط ونماذج ثقافية تختلف باختلاف المجتمعات .

ان تحليل شكل الثقافة ومحتواها في مجتمع ما مهما بدأ عليها من تجانس وبساطة ، ينطوي علي كثير من الصعوبات التي تفرض تحليل السمات الثقافية وما يندرج تحتها من خصوصيات حتي يمكن فهم الثقافة في وحدتها وتكامل أجزائها

ثانيا - استمرارية الأنساق الاجتماعية والثقافية وتفاعلها

إذا كان دوركايم واضحا في رؤيته للمجتمع بصفته مصدر لتشكيل الفرد وقولبته كيفما شاء ضمن أطره الثقافية ، فان الفرد هو ركيزة الحياة الاجتماعية عند **ماكس فيبر** فهو يشكل المجتمع بإرادته الواعية .

وقد قدم بارسونز مفاهيم تحليلية متقدمة تضمنت نظرية عامة عن المجتمع لا تبرز الرأسمالية بقدر ما تقدم تفسيراً وفهماً لصعوبات الرأسمالية دون أن تدينها . لقد رأى بارسونز الحياة الاجتماعية من خلال أفكار البشر وبخاصة من خلال معاييرهم وقيمهم .

نظر بارسونز في كتابه “ بنية الفعل الاجتماعي ” الي البشر علي اعتبار أنهم يقومون بالاختيار أو المفاضلة بين أهداف مختلفة ووسائل تحقيق هذه الأهداف ووفق هذه الخلاصة – النموذج- هناك أولاً الإنسان الفاعل وثانياً نطاق الأهداف التي لا بد أن يختار من بينها الفاعل وهناك ثالثاً الوسائل الممكنة لبلوغ تلك الغايات .

تتكون وحدة الفعل الصغرى إذن من “الفاعل” والوسائل والغايات التي تضم أشياء اجتماعية ومادية فضلاً عن المعايير والقيم . ويتكون “نسق الفعل” عند بارسونز من العلاقات القائمة بين الفاعلين وهذا النسق يركز علي معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءاً من بيئة الفعل . ويخلص بارسونز الي إن أي نسق ، وعلي أي مستوي يجب أن يفي بأربعة متطلبات إذا كان يريد البقاء وهي كما يلي :

- ١ - **وظيفة التكيف** : ان كل نسق لا بد أن يتكيف مع بيئته .
- ٢ - **وظيفة تحقيق الهدف** : لا بد له من أدوات يحرك بها مصادره ليحقق أهدافه .
- ٣ - **وظيفة الاندماج والتكامل** : عليه أن يحافظ علي التوافق والانسجام مع مكوناته .
- ٤ **وظيفة ثبات المعايير** : وقوامها أن تؤكد قيم المجتمع وأن تضمن أنها معروفة من قبل الأعضاء ، وان ثمة حافظاً لهؤلاء كي يقبلوا هذه القيم وان يخضعوا لمتطلباتها.

إن نقطة الانطلاق في التحليل البارسوني هي “ الفعل ” أي السلوك الإنساني الفردي أو الجمعي ، لذلك يشدد علي إن موقع الفعل يتحدد دائماً في أربعة سياقات هي :

- ١ - السياق الأيديولوجي بحاجاته ومتطلباته الفيزيولوجية والعصبية
- ٢ - السياق النفسي والذي يتدرج في اختصاص علم النفس وإطار الشخصية .
- ٣ - السياق الاجتماعي بتفاعلاته بين الأفراد والجماعات . وهو من اختصاص علم الاجتماع
- ٤ - السياق الثقافي وهو يتمثل بالمعايير والنماذج والقيم والإيديولوجيات والمعرف وهو السياق الذي درسته الأنثروبولوجيا بداية .

في التحليل البارسوني نظر الي الأنساق الاجتماعية والثقافية والي الأدوار بوصفها نتيجة للفعل الاجتماعي أو العكس ، إلا إن “ التفاعلية الرمزية ” لم تقم بهذه النقلة ، بل ظلت مع الفعل الاجتماعي . أنها تري البنى الاجتماعية ضمناً باعتبارها بني للأدوار بطريقة بارسونز نفسها ، إلا إنها لا تشغل نفسها بالتحليل علي مستوي الأنساق . أنها تبقي اهتماماتها علي مستوي “ وحدة الفعل الصغرى ” ولا تهتم بقضية الاختيار بين سلم المفاضلات قدر اهتمامها بقضية تشكيل المعاني . والمؤسس الفكري لهذا الاتجاه هو **جورج ميد** ، وهو اتجاه تجاذبته أكثر من تيار إلا إن **هربرت بلومر** أوجز فرضيات التفاعلية

علي الشكل التالي :

- ١ - إن البشر يتصرفون حيال الأشياء علي أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم .
- ٢ - هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني .
- ٣ - وهذه المعاني تحور وتعديل ويتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها .

هذه الفرضيات الثلاثة تركز علي “ الرمز الدال ” وهو ما يفرق الإنسان عن الحيوان . فاللغة كرمز دال هي المعني المشترك ، وهو يتطور في سياق عملية التفاعل الاجتماعي الذي يولد المعاني ، والمعاني بدورها تشكل عالمنا .

تبقى التفاعلية الرمزية مقربة معرفية في دراسة الشخصية ويظل اهتمامها مركزاً علي دراسة التفكير وعملياته